العجائبي في "الأرض الجوفاء"

أ.م.د. علي كاطع خلف
جامعة الكوفة-كلية الآداب

مدخل:

تجمع رواية "الأرض الجوفاء"[١] لعبد الهادي الفرطوسي في سياق ترتيب عناصر بنائها بين عناصر كثيرة متنوعة عرفت بها أشكال روائية رسخت وجودها في الأدب الروائي العالمي، وعناصر مهيمنة فيها عرفت بها تلك الأشكال الروائية من مثل الرواية العلمية والحكايات الشعبية وقصص الجن والحكايات الخرافية والأسطورية، زيادة على الصلة الدقيقة بين هذه الأشكال والمكونات خارج حدود هذه الرواية .

وقد يتبادر إلى الذهن أن تناقضا بين هذه المكونات يجعل من الصعب الجمع فيما بينها على صعيد واحد إذ كيف يمكن الجمع بين مكونات الرواية العلمية أي ما هو علمي حضاري ومكونات الحكايات الخرافية والأسطورية أي ما هو بدائي؟ ولكن الأمر ليس كما يبدو عليه في الظاهر إذ أن الخرافة – مباشرة أو غير مباشرة – ترتبط بالدين ودين المدينة المعاصرة هو العلوم الصرفة[٢]، وقد حظي وصف الرواية العلمية بأنها ميثولوجيا معاصرة دعما واسع النطاق داخل جمعية أبحاث الرواية العلمية، وكتاب الرواية العلمية في أمريكا.

نستطيع أن نلمح عمق الصلة بين الجانب العلمي في الرواية والجانب العجائبي المرتكز على الأساطير إذا عرفنا أن الرواية العلمية تقدم مجموعة من القصص التي تتناول إمكانات الإنسان ومصيره فالأسطورة :"تنشا نتيجة التأمل في ظواهر الكون وعلاقة هذه الظواهر بحياة الإنسان على الأرض ،والتأمل ينشا عنه التعجب ،كما أن التعجب يثير التساؤل ،فإذا أثير السؤال فلا بد من الإجابة عنه حتى تهدا نفس الإنسان .فإذا تمثل نظام الكون في شكل حكاية تحكى عن خلق الكون والإنسان وكيف خلقهما الإنسان ، وعن سبب تلازم الخير والشر وصراعهما معا ،فان هذه الحكاية التي تكشف أولى مراحل التفكير الفلسفي تسمى الأسطورة."[٣].

---

[١] الأرض الجوفاء : عبد الهادي الفرطوسي.

[٢] -أدب الخيال العلمي،مجموعة من الباحثين ،ص١٤٨ .

[٣] -الأسطورة،نبيلة إبراهيم، ص١٠ .

تسعى هذه الدراسة للكشف عن لعبة العجائبي في(الأرض الجوفاء)،للروائي عبدا لهادي الفرطوسي من خلال البحث في مشكلتي الراوي والوظيفة؛ اللتين لا تتكشف حقيقة توظيف العجائبي إلا من خلالهما، وينبغي المسارعة إلى الإشارة إلى أن تناول الرواية من خلال هذا المكون لا يأتي اعتباطا،وإنما هو ضرورة أملتها طبيعة الرواية نفسها ونستطيع أن نؤكد ذلك من خلال النظر إلى عنوان الرواية بحد ذاته وهو كما يبدو ،يضع المتلقي في حيرة من أمره فكيف تكون الأرض جوفاء؟ وهذا التردد هو عين العجائبي.

راوي العجائبي

تحفل كتب السردية والنقد الأدبي عموما بالعديد من التصنيفات لأنواع الرواة ،فمنها ما يعمد إلى الإيجاز مثل تصنيف واين بوث الرواة إلى ثلاثة[٤]:

١- المؤلف الضمني(the implied author).

٢- الرواة الممسرحين(dramatized narrators).

٣- -الرواة غير الممسرحين(undramatised narrators)

ومنها ما يعمد إلى التفصيل مثل تصنيف نورمان فريدمان [٥]:

١-الراوي العليم omniscience ويقع في ضمن هذا الصنف أشكال مختلفة من الرواة مثل؛الراوي العليم المحايد والراوي العليم المعلق والراوي العليم محدود الاختيارات.

٢- الراوي-(أنا)الشاهد " I " as witness

٣-الراوي-(أنا)الشخصية الرئيسة " I " as protagonist

٤-الراوي بالصيغة المسرحية(dramatic mode)

٥-الراوي-عين الكاميرا(camera)

وغني عن الشرح أن هذه الأنواع من الرواة قد لا توجد كلها في نص واحد ، بل قد يهيمن بعض منها في عمل ما وبعضها الآخر في عمل آخر،كما هو الأمر في رواية الأرض الجوفاء إذ إنها تتألف من ثلاثة أقسام؛الأول والثالث يرويهما الراوي-الشاهد، أما القسم الثاني فيرويه الراوي-الشخصية الرئيسة،فيكون ما يرويه الراوي الشاهد بمثابة الإطار لما يرويه الراوي الشخصية.

---

(٤)- See, the theory of the novel,p92

(٥) . ibid.,p119

إن دراسة الراوي هنا ،بل وفي أية دراسة تتناول ألعجائبي تمثل ركنا لا مناص من دراسته وان أي تجاهل له يمثل خللا يطيح بالدراسة بأكملها لسبب بسيط،هو أن ألعجائبي بمفهوم تودوروف يقوم على التردد الذي يعانيه المتلقي وهو يواجه حدثا فوق طبيعي بعد أن يتماهى مع السارد الذي يكون إنسانا متوسطا

أي يمكن أن يتماهى معه المتلقي العادي وبطبيعة الحال فإن هذا التماهي لا يمكن أن يتم إلا إذا كان الراوي بضمير الشخص الأول (أنا).يقول تودوروف:" إن الراوي الممَثل (الممسرَح) مناسب تماما للعجائبي."[٦] ويضيف:"إن في القصص ألعجائبي،عادة ما يستعمل الراوي "أنا" وهذه حقيقة تجريبية يمكن التأكد من صحتها."[٧] ومما له دلالته التي لا تخفى على دقة البناء الفني في الأرض الجوفاء ومناسبة ذلك البناء لطبيعة ما تتناوله من موضوع يفيض بالعجائبية ، إننا نجد نوعين من الرواة:

راوٍ يحكي حكايته الخاصة \الشخصية الرئيسة(البطل)، وآخر مجسد أيضا يحكي حكايته مع الراوي\البطل، ويقف عند القضايا التي لم يجد لها تفسيرا هو أو غيره من شخصيات القصة وينقل لنا منظورات تلك الشخصيات بما فيها منظور الشخصية الرئيسة\البطل،كذلك ينقل لنا منظورات الشخصيات ،بعضها لبعضها الآخر. على سبيل المثال ؛بعد أن يظهر عباس في مركز الشرطة ويحكي حكايته الخاصة لضابط الشرطة منذ اختفائه وإبلاغ أخيه وصحبه عن فقدانه ثم ظهوره المفاجيء،يندهش الضابط ولا يصدق ما يسمعه منه فيتدخل الأب ويؤكد صحة ما يرويه ابنه:"خرجنا صباح اليوم أنا وأخي الجالس إمامك وعدد من الأصدقاء في سفرة صيد عند وادي المهاري وعند الساعة الرابعة والنصف توقفنا عند تل المهالك وقررنا التوجه التل ،وقد سبقتهم إلى ارتقائه ،غير أني التفت ورائي لم أجد لهم أثرا،فاضطررت إلى العودة إلى المدينة بمفردي ولما كانت المسافة تزيد على العشرين كيلو مترا فقد جن علي الليل وأنا ما أزال اركض وسط الصحراء وحين أبصرت ضوء سيارتكم توجهت نحوها فنقلتموني إلى هنا

–ها ..ماذا تقولان؟

---

[٦]– The fantastic,p.84

[٧]– ibid,p.83،ويؤكد هذا الكلام فضلا عن النصوص الأدبية الكثيرة،صاحبا كتاب The nature of narrativeروبرت شولز وروبرت كيلوغ بقولهما:"كلما كانت القصة اقرب إلى العجائبية ،كلما كان الراوي الشاهد مفضلا أكثر" ينظر: The nature of narrative, Robert Scholes and Robert Kellogg,p.258.

-أجبت بحيرة وذهول.

-لكني كنت هذا اليوم في الدائرة.

-رد أخي

- اليوم عطلة رسمية

- لماذا؟

- انه يوم الجمعة

عقب الضابط بسخرية

-اليوم هو الأربعاء أيها الشاطر.

-ماذا؟أتسخرون مني؟

تدخل أبي

-سيادة الضابط إن مارواه عباس قد وقع فعلا يوم الأول من آذار في العام الماضي وليس هذا اليوم.وهو مثبت في ملف القضية .

-حسنا. المسألة تحتاج إلى دراسة.

أشار إلى شرطي أن يقاد عباسا إلى الزنزانة الحجز،حاول أبي الاعتراض لكن الضابط قال:

-هذا عملنا ونحن أدرى به.

-قلت له:

-المسألة أصبحت واضحة فهو مصاب بفقدان الذاكرة.

-وهناك احتمال آخر. ربما كان متورطا في قضية خطيرة لا يستطيع البوح بها."[٨]

يقول تودوروف :"إن من المناسب تقديم تمييز آخر في ضمن العمل الأدبي نفسه :إن ما يعطى باسم المؤلف في النص يهرب من امتحان الحقيقة،أما كلام الشخصيات فقد يكون صادقا أو كاذبا، كما في الحياة اليومية."[٩]

من هنا نستطيع أن نتبين دقة بناء الأرض الجوفاء ومدى تناغم الشكل مع المضمون،فعلى امتداد القسم الأول الذي يرويه الراوي-الشاهد،وعلى الرغم من انه راوٍ مجسد وشخصية من شخصيات الرواية الرئيسة فإننا لا نجد إشارة محددة يمكن أن تضع

---

[٨] -الرواية،ص١٧-١٨.

[٩] -The fantastic,p83.

أيدينا على حقيقة ما تواجهه الشخصيات ولا سيما الشخصية الرئيسة عباس .بل يترك الأمور كما هي غامضة حتى يأتي القسم الثاني ودور عباس ليكشف لنا حقيقة ما جرى له وهذا الراوي هو نفسه لا يعرف الحقيقة ،لذا يسعى إلى معرفتها بكل السبل ملحا على أخيه بكثير من الأسئلة التي لا تجد لها جوابا فيضطر إلى عرض أخيه على طبيب الأمراض النفسية ،ليكشف حقيقة ما أصاب أخاه ثم لتبدأ ذاكرته بالرجوع إليه وهنا يتدخل الطبيب طالبا منه الذهاب إلى البيت ليسترجع مع ملاحظة عدم توجيه الأسئلة إلا بعد أن يستريح ويتواعدان على اللقاء في اليوم التالي ليستمع منه إلى قصته"وصلت إلى المقهى قبل الموعد بساعة كاملة تملؤني اللهفة لسماع ما يرويه عباس عن غيبته التي دامت سنة ونصف ،والتي إمحت من ذاكرته طوال السنوات الماضية ولكن نادل المقهى فاجأني بتقديم مظروفين احدهما يحوي رسالة مغلفة والآخر يضم رسالة مغلفة .والآخر يضم رزمة ورقية كما اخبرني أن أخي حظر صباح اليوم.وأوصاه بتسليم المظروفين ألي. استغربت الأمر .وبادرت إلى فتح المظروف الأصغر.فرأيت الرسالة التالية مكتوبة بخط أخي عباس:-"[١٠] ومع الأخذ بالحسبان ما ذهب إليه تودوروف ،فإننا نبقى على امتداد القسمين الأول والثاني في حقل العجائبي،إذ إن الراوي الأساس هو الشخصية المجسدة،أما في القسم الثالث ولاسيما في الصفحات الثلاث الأخيرة من الرواية فإن هذا الشك والتردد الذي يحكم ويتحكم في طبيعة الجنس العجائبي لا يلبث أن يزول بعد أن يقرر أخوه وجماعته البحث عن الحقيقة مستفيدين من الخيوط التي تركها لهم عباس في مذكراته ،يقول احدهم :"لماذا نرفض تصديق عباس ؟ أنسيتم الشبح الذي رأيناه على سفح تل المهالك ؟ كيف عجزنا عن إيجاد تفسير مقنع لظهوره ؟ إن ما ذكره عباس على هذه الأوراق هو التفسير المنطقي الوحيد لتلك الظاهرة..."[١١].

وإذا رجعنا إلى تلك الحقيقة الأدبية التي تشير إلى أن الحقيقة إنما تقوم على العلاقة بين الكلمات والأشياء في العالم الخارجي ،أما في الأدب فان الحقيقة تقوم على الانسجام الداخلي،لذا فإن هذا الانسجام يتكشف في أوضح صورة حين تناقش الشخصيات ما جرى لعباس:"لماذا لا نصدق وجود مخلوقات عاقلة في جوف الأرض؟

رد احد الجالسين :

---

[١٠] -الرواية،ص٢٦-٢٧ .

[١١] -الرواية،ص١١٩ .

لكن احتمال تعرض عباس إلى أوهام تسلطية وارد أيضا.

كلا الأمرين ممكن .لكن عباسا قد ذكر إنسانين في مذكراته هما منخي الفتال والدكتور اسعد الجبلي.فإذا كان الأمر أوهاما تسلطية – كما تقول – فلا من أن يكون الشخصان وهميين ،لا وجود لهما في الواقع .أما إذا عرفنا إن هذين الشخصين لهما وجود واقعي،فلا بد أن يكون الأمر حقيقة لا وهما...[١٢]" إن هذا التشكيك في القدرات العقلية للراوي – الشخصية الرئيسة(البطل)من لدن الراوي– الشاهد وأصحابه ليس سلبيا وإنما يشكل جزءا من عملية السعي من اجل معرفة الحقيقة ، بوصف هؤلاء من المثقفين في حين نجد أن والد الراوي –الشخصية الرئيسة لا يتردد في اتهامه بالجنون"عرضت أمامهم الأوراق التي تركها عباس. ورويت لهم قصته.فكان جواب أبي:

هراء .انه مجنون. لا يعي ما يفعل."[١٣] ،نقول إن هذا التشكيك بالقوى العقلية للراوي ومن ثم تأكيد الطبيب المختص سلامة قواه العقلية يأتي متناغما مع طبيعة البنية العجائبية للرواية"توجهت إلى عيادة الطبيب وكان جوابه قاطعا:كان أخوك قد تعرض إلى فقدان جزئي للذاكرة وقد شفي من هذه الحالة يوم أمس. وانه بكامل قواه العقلية"[١٤]، وفي هذا الصدد يقول تودوروف : " إن وجود أحداث فوق طبيعية يرويها راوٍ طبيعي ،تمثل ظروفا مثالية لظهور العجائبي."[١٥] لذا نجدهم يبدأون البحث ثم يتوصلون إلى الحقيقة ؛ بان هذين الشخصين حقيقيان وموجودان في الواقع (أي واقع الرواية) فيعلق الراوي –الشاهد:"هكذا– تأكد لنا – نحن السبعة– إن ما رواه عباس في مذكراته حقيقة ثابتة. لكن ما لذي علينا أن نفعله؟... أنخبر الجهات الرسمية؟ من سيصدقنا ؟"[١٦].

ثم يضاف شاهد آخر وهو والد عباس ليؤكد صحة ما رواه عباس بعد أن كان غير مصدق لكل ما جرى "الثانية بعد منتصف الليل ،كنا ننام على سطح الدار أنا وأبي

---

[١٢] الرواية،ص١١٩.

[١٣] –الرواية،ص،١١٨ .

[١٤] –الرواية،ص١١٧.

[١٥] –. The fantastic,p.84ومما يتصل بهذا الشأن ما يؤكده جيرالد برنس من أن العلاقة بين الراوي وما يرويه ودرجة وعيه والمسافة بينه وبين ما يرويه لا تساعدنا في تشخيص الراوي فحسب وإنما تؤثر في تأويلنا للسرد واستجابتنا له .ينظر: Narratalogy, the form and function of narrative, Gerald prince,p.13

[١٦] –الرواية،ص١٢١ .

استيقظت على أزيز خافت فتحت عيني فأبصرت جرما بنفسجيا يحوم فوق سطح الدار حاولت النهوض فانهمر علي ضوء بنفسجي جعلني عاجزا عن الحركة والنطق اقترب الجرم أكثر هبط منه شخص لم استطع تحديد ملامحه في ظلمة الليل ،هبط سلم الدار حاولت النهوض فوجدت نفسي عاجزا .بعد دقائق صعد إلى السطح وقفز إلى المركبة البنفسجية وبسرعة شديدة غابت المركبة في الأفق البعيد .وجدت نفسي اقفز من فراشي واقفا .فوجئت بأبي يقفز مثل قفزتي.قال :

أرأيت الذي رايته ؟

نعم الجسم البنفسجي.

والرجل الذي هبط منه؟

أمتأكد انه رجل؟

لا ادري.الظلام كثيف، لكن ما اخذ من الدار؟

هبطنا السلم واجهتنا أمي التي كانت نائمة في سطح الدار وسألها أبي :

أرأيت الرجل الذي هبط إلى الدار؟

لم يكن رجلا لم يكن إنسانا.

ولاذت بصمت مبهم"[١٧]، ومما له دلالته في هذا الشأن أن الراوي- الشخصيةالبطل هو الآخر عندما تروي له شخصيات العالم ما فوق الطبيعي حكاياتها الخاصة يضع كلامها موضع شك حين لا يجد له مبررا منطقيا

"مالت سيليا ناحية الجدار ورطنت أمام المشبك وخلال دقيقة واحدة انفرجت أمامنا شاشة متوسطة المساحة وظهرت عليها كتابة مسمارية .قالت سيليا انه فلم وثائقي يصور المبارزة بين إنليل وكور.ظهرت على الشاشة صورة لمخلوق يشبه تماما التمثال الذي رايته أول دخولي عالم الانليليين .ومن تعليق سيليا علمت انه إنليل بعينه (...) وبعد قليل تقدمت مركبة معدنية صغيرة اتجه إليها إنليل وامتطاها .كما يمتطي الإنسان أتانا حلقت به عاليا (...) أطلت من الشاشة غمامة برتقالية متموجة هتفت سيليا :ذلك هو كور... "[١٨]، وبعد مشاهدته ذلك الفلم الوثائقي نجده يقول : واصلت سيليا حديثها عن الفلم الوثائقي مدعية

---

[١٧] -الرواية،ص١٢٤ .

[١٨] -الرواية، ص٥٤ .

أن الصورة ملتقطة قبل أكثر من عشرة آلاف سنة ."[١٩] فهو على الرغم من ثقته بها ،فإنه لا يستطيع أن يصدق أن هذا الفلم قد صور قبل أكثر من عشرة آلاف سنة ، والملاحظ على هذا الراوي لا يستغرب مما يراه أمامه من مخلوقات فوق طبيعية أي لا وجود فيها في عالمنا الطبيعي ، والسبب وراء ذلك يكمن في انه قد اعتاد على ذلك العالم فوق الطبيعي ، إذ إنه يعيشه الآن ويروي لأخيه عنه ،بل انه قبل أن يبدأ برواية ما يدعي انه قد وقع له من أحداث غريبة لم يستطع أخوه أن يصل إلى نتيجة بشأن حقيقتها ،في الأقل ،بشأن صدق أخيه من كذبه أو توهمه ألا في نهاية الرواية ولاسيما في القسم الثالث منها .لذا فان قضية وجود مثل هذه المخلوقات لم يعد مشكلة ،إذ إنها أصبحت جزءا من مشاهداته اليومية ، أما مسالة أن هذه المعركة قد وقعت قبل أكثر من عشرة ألاف سنة وان هذا الفلم قد صور آنذاك ؛ فهذا ما يصعب تصديقه عنده أو لا يستطيع أن يؤكده ،لذلك فانه ينقل عن سيليا بأنها تدعي...

والحقيقة أن هذا إنما يشير إلى دقة البناء في الأرض الجوفاء.

وظيفة العجائبي

مما لا شك فيه إن لكل مكون من مكونات الرواية وظيفة معينة يؤديها في عملية بناء المعنى الذي يرجو المبدع أن يوصله إلى المتلقي ، والمكون العجائبي لا يمثل شذوذا هنا، ولعل من اقرب المعاني التي قد يثيرها وجود العجائبي في الرواية أنه يقدم "هروبا من الواقع ."[٢٠] بيد أن هذه ليست الوظيفة الوحيدة له ،إذ يرى تودوروف[٢١] في حديثه عن وظيفة الأدب العجائبي أو بالاحرى عن وظائف الأدب العجائبي، أن هناك وظيفة اجتماعية ووظيفة أدبية ،ثم نجد تحت كل واحدة من هاتين الوظيفتين مجموعة من الاستعمالات التي يعمد إليها الروائي من اجل تحقيق أغراض بعينها سواء أكانت اجتماعية أم أدبية ،تتمثل الوظيفة الاجتماعية بأن العجائبي يسمح بالحديث عن ما لا يمكن الحديث عنه صراحة من غير التعرض لخرق تابو معين سواء أكان يتعلق بالسياسة أو الدين أو الجنس وهي المحرمات التي تشيع في مجتمعاتنا العربية والإسلامية أو غيرها من الموضوعات في ثقافتنا والثقافات الأخرى ومن ثم التعرض لعواقب هذا الخرق التي عادة ما تكون وخيمة على كل المستويات ، وغني عن التوضيح

---

[١٩] –الرواية،ص٥٤–٥٥ .

[٢٠] –أدب الفنتازيا ،ت.ي.أبتر،ص٢٠ .

[٢١] The fantastic,p.91

أن الوظيفة الأولى هي خارجية خلاف الوظيفة الثانية التي تمس النص الأدبي من الداخل .

إن ما لم يستطع الروائي أن يصرح به نستطيع أن نقرأه ضمنا في عالمه العجائبي مستعينين بالهوامش التي ألحقها الروائي في خاتمة الرواية وهي تشرح تلك الأسماء التي وردت في متنها وهي تعرف ببعض شخصياتها ،ومما له دلالته هنا أنها مستمدة من الأساطير العراقية القديمة .وقد استطاع الروائي بإبداع وشجاعة قل نظيرها أن يعبر عن تلك الحقبة من تاريخ العراق المعاصر ،في وقت كان الكتاب يرتعبون من مجرد إمكانية أن تكون كتاباتهم قابلة للتأويل بشكل لا ترضى عنه السلطة وان لم يقصدوا إلى ذلك قصدا،وأستطيع أن أقول على وفق هذا إن الرواية من هذه الناحية تعد حدثا عجائبيا بحد ذاتها سواء من حيث كتابتها أو من حيث السماح بنشرها. أما عن التابو الذي خرق هنا فهو سياسي كما هو واضح، و سيتضح معنا بعد قليل أكثر، من خلال الإشارات الكثيرة التي نجدها مبثوثة على امتداد صفحات الرواية ولعل في بداية الرواية ما يشير إلى ذلك ،إذ إنها خلاف ما هو متوقع أو معهود في مثل هكذا رواية تفتتح بالتصريح بما سيقع من أحداث فوق طبيعية كأنما لإعلان البراءة من كل ما يمكن أن يقع في دائرة المحظور[٢٢] ،وهذا المحظور إنما يقع في القسم الثاني الذي يمثل التوظيف الحقيقي والجوهري وهو الذي يرويه الراوي – الشخصية الرئيسة(البطل)، ونحن لا نستطيع الوقوف على حقيقته وكيف يبني الكاتب عالمه الروائي من خلال المزج بين الواقعي والخيالي والخرافي والأسطوري وعالم ما فوق الطبيعي إلا بالوقوف عند بعض تلك الأسماء التي وردت في الرواية[٢٣]:-

١-إنليل ؛اله الهواء وكبير الآلهة في الديانة السومرية

٢-دموزي؛ الإله الراعي أو اله الخصب،عند السومريين وهو عند الجزريين تموز وتروي الأساطير السومرية أن الآلهة اينانا (عشتار)أوصلته إلى العالم السفلي الذي تحكمه أختها الآلهة شيخال بالتآمر عليه لكن هذا الأمر أثار غضب مجمع الآلهة فقرروا أعادته إلى الحياة فنشر الخصب والنماء.

---

[٢٢] -ينظر: الرواية ،ص٥- ٦ .

[٢٣] - ينظر:الرواية،ص١٢٦- ١٢٨ .

يقول الراوي– الشخصية : "كانت أول مواجهة عظيمة لنا مع الشيخاليين حين هجمنا على سجن العاصمة الرهيب الذي ضمك بين أسواره حولا كاملا فحررنا السجناء . انبثقت شرارة انتفاضة جماهيرية عارمة . بدأت حصون الشيخاليين تتساقط. وخلال أيام قلائل كان الدموزيون يقفون على دفة الحكم (...) ولا أكتمك سرا إذا قلت لك إن الحياة الجديدة لم تكن بالصورة التي نحلم بها ... فعند انهيار سلطة الشيخاليين ، بعد آلاف السنيين من الحكم الجائر أصابت الجماهير الانليلية موجة من التمرد الجنوني. بدأت بإحراق السجن المركزي، ثم تدمير مقرات السلطة الشيخالية تدميرا كاملا . لكنها استمرت في رفض كل قديم ، وكم كانت دهشتنا كبيرة .. ونحن ننظر إلى السذج الانليليين وهم يهشمون تمثال جدهم إنليل العظيم ويحرقون محتويات المكتب الوثائقي باعتباره من بقايا الشيخاليين ."[٢٤]إن هذا الوصف يكاد يتطابق مع ما حصل في انتفاضة الجنوب والشمال في سنة ١٩٩١ بل يكاد أن يكون تسجيلا حرفيا في بعض مفاصله لما حصل في تلك الانتفاضة من تدمير للسجون والسيطرة على مقرات السلطة وأخيرا وليس آخرا إحراق كل شيء يعود للدولة بما في ذلك المكتبات، أما عن الوظيفة الأدبية أو الأثر الخاص بحسب تودوروف الذي يتركه ألعجائبي وهو خوف أو رعب أو حب استطلاع والذي يهيمن هنا هو هذا الأخير ابتداء من الجملة الأولى التي تفتتح بها الرواية "أهي مصادفة أم ضرورة؟ أم قدر رسمته قوى مجهولة تتحكم بمصائرنا؟"[٢٥].

ولعل ما يتبادر إلى الأذهان أن حب الاستطلاع هذا قد لا تخلو منه أية رواية تسعى لأن تحتل مكانا لدى القاري،وليس صفة تختص بها روايات الأدب ألعجائبي،ونستطيع القول أن هذا الكلام فيه كثير من الصحة بيد أنه يفتقر إلى الدقة،إذ إن قراءة دقيقة للجملتين الاستفهاميتين اللتين تفتتح بهما الأرض الجوفاء تكشف عما تنطوي عليه هذه الرواية من وقائع وأحداث فوق طبيعية ،فتساؤل الراوي– الشاهد: أهي مصادفة أم ضرورة ؟إنما يشير إلى طبيعة الصنف الذي تندرج تحته الرواية ، إذ إن الرواية الواقعية تبتعد عن كل ما هو غير مبرر فنيا أو منطقيا من الإحداث ومما لاشك فيه أن المصادفة هي عين ذلك الذي لا يجد له مبررا فنيا أو منطقيا، في حين تشكل المصادفة ركنا رئيسا من أركان الأدب ألعجائبي .

---

[٢٤] –الرواية ،ص١١٢– ١١٣ .

[٢٥] الرواية،ص٥ .

ثم تتضح الصورة أكثر فأكثر مع قراءة الجملة الثانية : أم قدر رسمته قوى مجهولة تتحكم بمصائرنا؟ (فالقدر) و(القوى المجهولة) التي تتحكم بالمصائر استمرار لتلك المفردات الموحية بما فوق الطبيعي، وإذا أخذنا بالحسبان تلك البديهة التي تقول إن الاستهلال يحوي بذور ما سينطوي عليه النص، فإننا سنضع أيدينا على ما يتسم به حب الاستطلاع الذي يستثار في مطلع هذه الرواية، من خصائص تميزه مما سواه مما يمكن أن نجده في غير الأدب ألعجائبي.

يحفل القسم الأول الذي يرويه الراوي– الشاهد بمكونات مختلفة مما يتوقع أن يكون محفزا كبيرا لإثارة فضول القاريء وحب استطلاعه فضلا عما يمكن أن يصاحب ذلك من خوف أو ترقب ابتداء من واقعة اختفاء عباس وكل ما صاحبها من أحداث من مثل ظهور المخلوق الغريب الذي أمطروه بوابل من الرصاص من غير أن يؤثر فيه شيئا وكذلك الكلام الذي أسره أحد رجال الشرطة، الذين كانوا يحققون في حادث اختفاء عباس، إلى الراوي ثم رجاه أن لا يبوح به لأحد "لأنه يهدد مستقبله وفحوى ذلك السر أنهم خرجوا ليلة إلى ذلك التل وكانوا أثني عشر رجلا بسيارتين يقودهم ضابط عرف بالشجاعة.وحين وصلوا إلى عتبة التل توقفت السيارتان ، وانطفأت الأضواء فيهما وعبثا حاولوا أن يكتشفوا سر العطل .فأمرهم قائد المفرزة بالسير راجلين مستعينين بمصابيح يدوية تعمل ببطاريات جافة ،غير أنهم أدركوا بعد قليل أن مصابيحهم كانت معطلة أيضا، وأن أجهزة الاتصال التي في أيديهم قد توقفت عن العمل وحين قرروا العودة إلى المدينة عادت الطاقة الكهربائية إلى السيارتين.وهدر المحركان فانطلقوا عائدين."[٢٦]

إن التأمل الدقيق في القسم الأول من الأرض الجوفاء من حيث مكانه من الرواية ومن حيث الوظيفة المهيمنة على هذا القسم سيكشف مدى الدقة والصنعة الفنية المبذولة فيه، إذ يعد هذا القسم بمثابة التمهيد للدخول إلى صلب الرواية ومواجهة الأحداث فوق الطبيعية مباشرة فضلا عن تبدل شكل الراوي من الراوي الشاهد إلى الراوي الشخصية(البطل).

وإذا كان القسم الأول من الرواية يبتديء بالتساؤل عن المصادفة والضرورة والحديث عن القوى المجهولة ،فإن القسم الثاني هو الأخر يبدأ بالتساؤل ولكن هنا هذه المرة بالتصريح بالقوى السحرية "ترى أية قوى سحرية اختارتني من بين ملايين البشر فوسوست

[٢٦] –الرواية،ص١٣–١٤.

في أذني أن أرافق أخي وأصدقاءه في تلك السفرة."[٢٧] وتبدأ المكونات فوق الطبيعية في التحول في هذا القسم فما كان يضع القاريء موضع المتردد بشأن حقيقته في القسم الأول تتكشف حقيقته هنا ليكون في جهة العجيب أو جهة الغريب ،فعلى سبيل المثال ما كان من أمر المخلوق الغريب الذي ظهر أمام الراوي وجماعته وانهالوا عليه بالرصاص ولم يعرفوا له حقيقة بعد اختفائه في جحر لا يتسع لا لقنفذ،أي ما يعد هنا بنظر تودوروف عجائبيا لا يلبث أن يتحول إلى في القسم الثاني إلى الغريب "لقد اعتقد الانليليون بذلك فسلطوا علي تلك الالة العجيبة التي اعتقدتها أول الأمر بيضة ذهبية كبيرة فاقتادتني عبر ذلك النفق الملتوي الذي انحدر بي إلى الأعماق ."[٢٨] ثم نجد بعد أكثر من ثلاثين صفحة توضيحا أكثر لحقيقة هذه الالة أو المخلوق البشع " اختفت الصورة لحظات ثم حلت محلها صورة جهاز صغير في ممر ضيق كان بحجم علبة السجائر . استطعت أن أحدد حجمه قياسا على حجم قنفذ مر من أمامه مغادرا النفق ،تابعت الشاشة عرض صورة الجهاز وهو يغادر النفق إلى العراء فيستطيل فجأة ويأخذ شكل مخلوق بشع ،ذي فم مقوس وأذنين كبيرتين،راح يتحرك بطريقة غريبة، بينما ظهر على الشاشة أخي وجماعته وقد وجهوا بنادقهم نحو ذلك الجهاز وبادروا بإطلاق النار..."[٢٩].

أما ما يشير إليه تودوروف من أن ألعجائبي يحقق تشويقا يؤدي بالنتيجة إلى تنظيم مكثف للحبكة ،فإننا نلمسه في جميع أقسام الرواية ولاسيما القسم الثاني.ولكن قبل أن نبحث في هذا الموضوع في الأرض الجوفاء ينبغي أن نقف على مفهوم التشويق والمراد منه في هذا المجال.

تعرف المعجمات الأدبية والكتب النقدية التشويق(suspense) بأنه"شك من جانب القاريء المعني حول ما سيقع ولاسيما للشخصيات التي ارتبط معها عاطفيا"[٣٠] أو هو" شك موسوم باللهفة، والتشويق هو عادة مزيج غريب للألم والمتعة،ومعظم الأعمال العظيمة تعتمد على التشويق."[٣١]

---

[٢٧] الرواية،ص ٣١ .

[٢٨] الرواية،ص ٣١ .

[٢٩] الرواية،ص٦٣ .

[٣٠] A glossary of literary terms,M.H.Abrams,p.160-

[٣١] Story and Discourse ,Seymour Chatman,p.59–

إن حب الاستطلاع الذي يثار في القسم الأول يتعزز بعنصر التشويق الذي يغذيه هذا الغموض الذي يلف مصير الشخصية الرئيسة (البطل) عباس، ونبقى على امتداد القسم الثاني الذي يرويه لنا بنفسه بل كذلك القسم الثالث الذي يرويه أخوه، نبقى في شك بشأن مصير عباس وما يمكن أن يحل به مستقبلا، إذ نجده يتحدث عن القوى السحرية التي يمكن أن تكون قد اختارته ، ثم اعتقاد الانليليين الذين أسروه أن أعداءهم من الكوريين قد أرسلوه للتجسس عليهم وتعذيبهم إياه لكي يعترف بذلك [٣٢]. ومع توليه أمر السرد بنفسه فإننا نبقى كقراء نتابع بشوق ما سيحصل له ، جاهلين مصيره حتى نهاية الرواية، يقول في حديثه عن تلك الالة العجيبة التي اعتقد أول الأمر أنها بيضة وكيف قادته إلى نفق في الأرض ليعيش" حالة من الهلع الشديد ،لقد صرخت بأعلى صوتي:استغثت واستنجدت..ولكن من يسمع استغاثتي؟ حاولت أن أجد بابا للخروج فلم تعثر كفاي إلا على جدران صخرية خشنة، وبعد دقائق بدأت أفكر بجدية وقادني تفكيري إلى الاعتقاد بأن أكواما من التراب قد انهارت على ذلك الممر الطويل فدفنت حيا تحت تراب تلب المهالك."[٣٣] ويبقى عباس ينتقل من حدث غريب إلى آخر محاولا هو ومن ثم القاريء من بعده أن يجد تفسيرا مقنعا لما يجري له أو يسيطر على مصيره " اتكأت بمرفقي على حافة المنصة ووضعت رأسي بين كفي مستجمعا شتات أفكاري، باحثا عن تفسير منطقي لما أراه ، ولكن صوتا أنثويا عميقا طرق أذني قائلا:قف بأدب أمام تمثال إنليل العظيم. التفت فزعا ناحية الصوت . وإذا بي أرى مخلوقا يشبه التمثال الذي اتكأ على منصته.. وكان طوله لا يزيد على المتر الواحد وكان يحمل ملامح التمثال نفسها لولا بعض الصفات الأنثوية.وعاود المخلوق نداءه. قف بأدب أمام تمثال إنليل العظيم. حاولت أن أهرب، لكني وجدت ساقي عاجزتين عن الحركة بفعل الفزع المباغت الذي اعتراني.."[٣٤]

وبعد مجموعة من الأحداث الغريبة التي لا تجد لها تفسيرا منطقيا يتمكن عباس من العودة إلى أهله ،بيد انه لا يلبث بعد مدة من الزمن أن يقرر العودة من حيث أتى، إلى ذلك العالم الغريب المليء بالأحداث فوق الطبيعية، واعداً هو ،أن يأتي إلى زيارتهم ثلاثة أيام في كل شهر ،لكنه غادر ولم يعد ليبقى أهله أو بالاحرى هكذا وُعد مصيره مفتوحا على

---

[٣٢] –ينظر: الرواية،ص٣١ .

[٣٣] –الرواية، ص٣٤ .

[٣٤] –الرواية،ص٣٣–٣٤ .

كل التوقعات" بعد مرور عام كامل على غياب عباس سألني صاحبي : أما من جديد حول عباس ؟

لا جديد.يبدو أن هيامه بسيليا قد أنساه أهله وأصدقائه(كذا) أتمزح ؟إن الأمر لم يعد مشكلة عباس وحده أو مشكلة أهله. إنها مشكلة الإنسانية جمعاء. ماذا لو خرج علينا الانليليون من جوف الأرض أيبقى للإنسان ذكر؟"[٣٥] .

ثم لا تفوتنا الدلالة النهائية للكلمات التي تفتتح بها الرواية واتي تختتم بها ؛إذ إنها تفتتح بالتساؤل كما مر بنا وتختتم بالصمت"ترى هل سقط الدموزيون؟ هل استعاد الشيخاليون سلطتهم؟هل أودعوا عباسا السجن؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

لا جواب.الخنجر وحده لامع ومعقوف.وعلي أن ألزم الصمت."[٣٦]

أما عن الوظيفة الأدبية الثانية التي يحققها العجائبي في الرواية أي ما يسميه تودوروف ب"خدمة السرد وتحقيق التشويق : إن وجود العجائبي يسمح بتنظيم مكثف للحبكة "[٣٧]فينبغي القول إن الحدث ألعجائبي يأتي ،كما يشير إلى ذلك تودوروف ،ليكسر التوازن أو عدم التوازن أي بعبارة أخرى تعديل الوضع السابق،" إن كل كسر في الموقف المستقر يتبع ،في هذه الأمثلة،بتدخل فوق الطبيعي،ويثبت المكون العجيب أنه المادة السردية التي تؤدي هذه الوظيفة على أحسن وجه:لغرض تعديل للموقف الابتدائي ،ولكسر التوازن القائم (أو اللاتوازن)"[٣٨]، والتوازن هو القانون الثابت أو المستقر أو القاعدة القائمة التي لا بد أن تخرق لكي لا يموت ألحكي من اجل أن ينمو باطراد ، والطريف أننا نجد أن هناك أكثر من محاولة للإبقاء على التوازن و فمرة تأتي على لسان ألام، كما يصرح بذلك الراوي :" فأي شيطان وسوس في أذني لأدعو أخي الصغير عباسا ليشاركنا سفرة الصيد التي قادتنا إلى هذه النتيجة المظلمة؟ أهو الشيطان الكوري كما يزعم الانليليون ؟أم إن إبليس اللعين ؟ كما تقول أمي يوم اعترضت طريقنا، ونحن نزمع القيام بتلك السفرة؟... وأي بصيرة نافذة تتقد في ذهن هذه القروية العجوز لترى أنياب القدر مكشرة؟ أضروري أن تأخذوا عباسا معكم ؟"[٣٩]، ثم تخاطب عباسا بقولها :" قلبي يحدثني بأن أمرا خطيرا

---

[٣٥] الرواية،ص١٢١-١٢٢ .

[٣٦] -الرواية ،ص١٢٥ .

[٣٧] - The fantastic,p.92.

[٣٨] -ibid.,p.84.

[٣٩] -الرواية ،ص٦ -٧ .

سيحصل لك . إلعن الشيطان ولا تذهب معهم."[٤٠]، ولكنه لا ينصاع لتحذير ألام ويمضي في تنفيذ عزمه بقوله:"لا تقفي في طريقي سأذهب ." ويمضي معهم في سفرتهم ويستمر التوازن القائم في الحكاية إلى أن يصلوا إلى تل المهالك وهم في طريق عودتهم من تلك السفرة و وعلى الرغم من كل ما يعرفونه أو يسمعونها عن تل المهالك هذا وكذلك اعتراض بعض من كان في تلك الرحلة على الاقتراب من هذا التل فإنهم استمروا في إقدامهم على ما عزموا عليه ثم تأتي محاولة المنع الأخيرة ولعباس تحديدا هذه المرة أيضا"أمام إصرارنا على اقتحام تل المهالك ، رضخ صاحبنا للأمر ورافقنا نحو التل . انطلق عباس أمامنا فطلبت منه أن يتريث قليلا لكنه قال :-

قلب عباس لا يعرف الخوف . وانطلق بسرعة اكبر ..."[٤١]

وبهذا الخرق للمنع يتدخل العنصر فوق الطبيعي ومعه تتفتح أبواب الحكاية لتتتابع سلسلة الأحداث المكونة لجوهر الرواية ، فبعد أن ينطلق عباس سابقا أصحابه إلى أعلى التل يناديهم بقوله :" اركضوا قلت لكم اركضوا . مالكم كسالى لا انه كنز ثقيل من الذهب لو أستطيع حمله لحملته أليكم . قبيل أن نصل إلى التل رأينا مخلوقا غريبا يخرج من كهف في أسفل السفح وينتصب أمامنا سادا الطريق علينا .كان عملاقا يزيد طوله على خمسة الأمتار(كذا).ذا فم عريض متقوس إلى الأعلى وعينين مدورتين حمراوين وانف أفطس، وأذنين طويلتين مدببتين وجلد مجلل بالشعر... ركض اثنان منا عائدين لكن صاحبنا المثقف الطليعي قال:

-لا تفزعوا أظنه دمية.

غير أن المخلوق الغريب فتح فاه كاشفا عن أسنان طويلة ثم جثا على ركبتيه . ونهض ثانية، فعل كل ذلك ربما ليخبرنا انه كائن حي وليس دمية . ظلت عيناي موزعتين بين أخي الذي يقف على قمة التل وبين المخلوق الغريب. صوبت بندقيتي نحو جسد العملاق لكنه لم يأبه لتهديدي أطلقت عليه النار وحذا جماعتي حذوي . والعملاق لم يتزحزح من مكانه ظل يواصل تحريك أذنيه الطويلتين ساخرا منا... وحين سمع أخي أصوات الطلقات غادر موقعه متجها إلينا لكني لاحظته بعد قليل يتراجع إلى قمة التل مذعورا ثم يغيب بين

---

[٤٠] – الروايةوص٦ .

[٤١] – الرواية،ص٩ .

كثبانها ..واصلنا الرمي حتى نفد عتادنا .عند ذلك غادر المخلوق الغريب متجها إلى الكهف الذي خرج منه:

وقفنا في مكاننا قليلا بانتظار عودة عباس لكنه ظل مختفيا عن الأنظار."[٤٢]، وهذا الاختفاء هو الذي يكسر التوازن في الحكاية ،لتبدأ عملية البحث عنه ، وتبدأ أيضا رحلة عباس في المجهول مع عالم فوق الطبيعي،وهنا كما يشير تودوروف تجتمع الوظيفتان الاجتماعية والأدبية ؛ مسألة خرق القانون واللجوء إلى العجائبية للابتعاد عن العواقب في الوظيفة الاجتماعية وخرق القانون في القصة أو في الأقل عدم الانصياع للتحذيرات من ما هو محذور كما هو الحال هنا .ولعل من ما يعزز الطابع العجائبي في الأرض الجوفاء ما تحتله العنوانان والأسماء فيها من مكانة مهمة تؤثر في رسم الدلالات النهائية للمكونات المشتركة في بنية النص، فالتل الذي يعد من الأمكنة الرئيسة للحدث العجائبي يدعى تل المهالك ،يقول الراوي الشاهد:"وأثناء عودتنا في الساعة الرابعة والنصف عصرا توقفنا على مقربة من تلك المهالك ، واقترح احدهم :-ما رأيكم أن نقتحم تل المهالك :

وآزره آخر:

-فكرة جميلة

اعترض ثالث:

- مالنا وتل المهالك دعونا نمرح على هذه الأرض الجميلة.
- ضحكنا منه جميعا.
- هل تخاف العفاريت التي تسكن التل ..أيها المثقف الطليعي."[٤٣] ،

ونجد توضيحا لهذه التسمية بعد وقوع حادث اختفاء عباس عندما زار أخوه البدو الساكنين بالقرب من منطقة الحادث، بحثا عنه" كان جواب البدو واحدا . انه تل المهالك سمي بهذا الاسم لان الوصول إليه مهلكة..فقدنا إبلا كثيرة هناك . ولم نجرؤ على اقتحامه .انه تل مسكون والوصول إليه أكثر من طاقتنا."[٤٤]،ومن الطريف الالتفات هنا إلى أن قول البدو أنهم فقدوا إبلا كثيرة هناك يعزز من التفسير الطبيعي الذي قدمه صاحبهم المثقف الطليعي لكل ما يدور حول تل المهالك من حكايات" يتناقلها البدو حول وجود

---

[٤٢] -الرواية،ص٩-١٠.

[٤٣] -الرواية،ص٧-٨ .

[٤٤] -الرواية،ص١٢ .

أشباح تطاردهم إذا اقتربوا من تل المهالك . وكيف أنهم يرون في الليل نيرنا تشتعل أحيانا على التل .وأضواء حمراء وخضراء وبنفسجية تومض منه في أحيان أخرى . وكان صاحبنا الذي يحلو له أن يطلق على نفسه صفة المثقف الطليعي ، فوجد نفسه مقتنعا أن تل المهالك ليس إلا مخبئا من مخابيء المهربين ، وان تلك الحكايات لا تعدو أن تكون إشاعات يروجها هؤلاء المهربون ولا يستبعد منهم أن يفتعلوا ألاعيب يخيفون بها السذج من البدو إذا ما اقتربوا منهم ...يفعلون كل ذلك ليبعدوا المتطفلين عن مخابئهم."[٤٥]

والحقيقة أن فقدان البدو إبلهم لا يجد تفسيرا منطقيا له حتى بعد الإطلاع على ما جرى لعباس،واختطافه من قبل تلك الكائنات الغريبة ، إذ إن هذه الكائنات تختطف كل من يقترب من تل المهالك مخافة أن ينكشف سرها مثل منخي الفتال والدكتور اسعد الجبلي[٤٦] ،فإذا كان هذا هو المبرر لاختطاف البشر فلماذا تختطف الإبل؟ وهذا التردد في اعتماد تفسير منطقي لفقدان الإبل يعزز قبول الحادثة على أنها عجائبية.

المصادر والمراجع

العربية:

*الأرض الجوفاء ، عبدالهادي احمد الفرطوسي،دار الشؤون القافية العامة،بغداد،ط١-٢٠٠٢.

*الأسطورة، نبيلة إبراهيم ،منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الموسوعة الصغيرة،(١٥٤)، بغداد\١٩٧٩.

*أدب الخيال العلمي،مجموعة من الباحثين، كتاب الثقافة الأجنبية،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،١٩٨٦.

*أدب الفنتازيا،مدخل إلى الواقع،ت.ي.ابتر،ترجمة صبار سعدون السعدون،دار المأمون للترجمة والنشر،بغداد،١٩٨٩.

الأجنبية:

* a glossary of literary terms, M . M . Abrams, Cornell university,USA,1993.

*The fantastic, a structural approach to a literary genre, Tzvetan Todorov,translated
from the French by Richard Howard, Cornell university press, Ithaca & newyork,19887.

[٤٥] -الرواية،ص٨-٩ .

[٤٦] - ينظر :الرواية،ص٨٩ .

*Narratalogy the form and function of narrative, mouton publishers, Berlin –New York, Amsterdam,1982.
*The nature of narrative , Robert Scholes & Robert Kellogg, oxford university press, London-newyork,1984.
*Story and discourse ,Seymour Chatman, Cornel university press, Ithaca& London,1978.
*The theory of the novel ,ed., Philip Stevick, free press, London,1967.